توطين البلاغة الجـديـدة في الـــدرس العربي الحديث

د.عمر بوقمرة جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الملخص: يجتهد هذا البحث في التعريف بنظرية الحجاج في اللغة في الدرس المغاربي المعاصر، فهي تمثل أحد أهم اتجاهات البلاغة الجديدة، التي لقيت حفاوة بالغة في الأقطار المغاربية؛ لأسباب سوف تتجلى من خلال البحث، بخلاف الأقطار المشرقية. وقد ظهرت هذه النظرية على يد اللساني الفرنسي: "أوزوالد ديكرو"؛ من خلال مؤلفه "الحجاج في اللغة" عام 1983م بمشاركة زميله "جون كلود أنسكومبر"، ولكنها لم تستنبت في المغرب العربي تنظيرا وتطبيقا إلا مع نهاية الألفية الثانية، ومطلع الألفية الثالثة، ومعالمها مازالت مبهمة عند كثير من الباحثين؛ فرغبت في تقريبها للباحثين من خلال تتبعهافي بطون بعض المؤلفات المخطوطة(الرسائل والأطاريح الجامعية) والمطبوعة على قلتها، وحاجة البحث إليها.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الحجاج، البلاغة، المغرب العربي، المشرق العربي.

Abstract: This research aims to define the theory of argumentation in the language in the contemporary Maghreb lesson. It represents one of the most important trends of the new rhetoric, itwas very important in the Maghreb countries; for reasons that will be detected through research, unlike the eastern countries. It had appeared from linguistOswald Ducrot,and his friend Jean Cloud AnscombreThrough their book: "The Argumentation in Language" in 1983, it was not appeared in the Arab Maghreb until the end of the second millennium and the beginning of the third millennium, And its principles are unclear to many researchers; so I hope to approach it to the researchers through tracking itfrom some written manuscripts and printed on the small, and the need to search for them.

Keywords: Language, Argumentation,Rhetoric, Maghreb countriesEasterncountries.

– مقدمة:

الحجاج في اللغة نظرية غربية دلالية حديثة انبثقت من داخل نظرية الأفعال اللغوية لكل من أوستين وسيرل، تقدم تصورا جديدا للمعني من حيث طبيعته ومجاله، وهي تندرج ضمن تيار حديث في اللسانيات، ظهرت على يد الألسني الفرنسي "أوزوالد ديكرو"(O. Ducrot)، – بعد إضافته فعلين لغويين هما: الاقتضاء، والحجاج–، في كتابه "الحجاج في اللغة" L'argumentation(langue Dans La) عام 1983م، مفادها أن اللغة تحمل في جوهرها بعدا حجاجيا، ومن ثَمَّ فهي لا ترى بأن الوظيفة الإبلاغية الإخبارية هي الوظيفة الأساس والوحيدة للغة، بل إن الوظيفة الحجاجية هي أهم وظائفها.

لقد أسس مفهوما جديدا للحجاج يختلف عن مفهوم بيرلمان وتيتيكا، يقوم أساسا على اللغة بخلاف مفهوم بيرلمان القائم على تقنيات وأساليب في الخطاب، تكون شبه منطقية، أو شكلية، أو رياضية.

فأرسى بذلك مبدأ تداوليا فحواه: أن البعد الحجاجي سابق عن البعد الإخباري في الكلام، فكل كلام حسب هذه النظرية هو حجاجي بالقوة، قبل أن يقوم بدوره الإخباري الإعلامي، فالسمة الحجاجية منغرسة في اللغة أصالة؛ فهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وإمكاناتها الطبيعية الحجاجية، بعيدا عن المنطق الأرسطي وأحافيره الشكلية؛ وعليه فخلاصة علاقة اللغة بالحجاج من هذا المنظور الحداثي هي:" **أن لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل**"؛ وذلك تجسيد لتلك الفكرة الشائعة التي مفادها " **أننا نتكلم عامة بقصد التأثير**"، كما يرى أبو بكر العزاوي.

تلقف الباحثون العرب المحدثون هذه النظرية عن ديكرو، ومنهم: أبو بكر العزَّاوي، وعبد الله صولة، وسامية الدريدي وغيرهم، وراحوا يطورونها من خلال توسيع دائرة التحليل والتطبيق لتشمل كل الخطابات؛ الدينية، والأدبية، والسياسية، والتاريخية، والصحفية، والإشهارية، والمرافعات القضائية، والرسائل الجامعية، والمناظرات الفكرية، تسليما منهم أن كل خطاب منجز بواسطة اللغة فهو حجاجي.

والقرآن الكريم خطاب إلهي نزل وكتب بلغة طبيعية- حسب تعبير العزّاوي- هي اللغة العربية، وهو موجه إلى كافة البشر، فهو خطاب طبيعي، يقوم على الحجاج الطبيعي، وذلك مبرر كاف لمقاربته من هذه الزاوية، خاصة وقد وجدوا في التراث العربي ما يسند هذا التوجه، بل ويعده وجها من وجوه الإعجاز الذي لم ينل حظه من العناية والبحث.

يقول أبو سليمان الخطابي(319-388هـ) في رسالته الموسومة بـ:" بيان إعجاز القرآن" :" قلت في إعجاز القرآن **وجها آخرذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس،** فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلَص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب [الاضطراب] والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوّ للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن؛ فلم يلبثوا حتى وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم

إيمانا".الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، د-ت، ص70.

وقال ابن الأثير:" مدار البلاغة كلّها عليه[استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم]؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها".

ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه معلق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ملتزم الطبع والنشر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط2، د-ت، ج2، ص250.

وكانت أبرز وأجرأ وأوسع محاولة؛ هي تلك التي قام بها البلاغي التونسي عبد الله صولة في كتابه" **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**"، حاول فيه تحليل نماذج من القرآن الكريم متتبعا مراصد الوجوه الحجاجية في المفردة والتركيب والصورة.

– أفعال اللغة لأوستين تلهم فكر ديكرو:

انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من رحم نظرية الأفعال اللغويةالتي أسس بنيانها جون لانجشو أوستين البريطاني(JhonLanshawAustin) (1911م 1960م)؛ أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد حيث وضع نواة التداولية اللسانية المتمثلة في فكرة أفعال الكلام، حين ألف كتابا بعنوان: How to do things with (words)[1]؛ وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في جامعة هارفاد سنة 1955م، ضمن برنامجسمي ب : " محاضرات وليام جيمس Wiliam James"[2]،وجاء من بعده تلميذه سيرل(Searl) المولود سنة 1932م[3]، وأستاذ

بجامعة بركل Berkeley بكاليفورنيا فبنى على ما ابتدأه فأحكم هذه النظرية، ووصلت درجة النضج.

جاء ديكرو فقام بتطوير أفكار هذه النظرية، وعلى الخصوص آراء أوستين، مقترحا إضافة فعلين لغويين آخرين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج[4]، ومن الأخير انبثقت نظرية الحجاج في اللغة، "فما الفعل الحجاجي إلا نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي"[5]. لقد ألف أوزوالد ديكرو (O. Ducrot)**بمشاركة زميله** جون كلود أنسكومبر (Jean Cloud Anscombre) كتابا بعنوان:"الحجاج في اللغة"(L'argumentation dans la langue)، حيث أسسا مفهوما جديدا للحجاج يختلف عن مفهوم بيرلمان وتيتيكا، ويقوم أساسا على اللغة بخلاف مفهوم بيرلمان القائم على تقنيات وأساليب في الخطاب، تكون شبه منطقية، أو شكلية، أو رياضية[6].

إذن هناك صنفان من الخطاب اللغوي يهدف أحدهما إلى نقل المعلومة كما هي دون زيادة أو نقصان؛ بدءا بالأحداث الحقيرة إلى الأحداث الجليلة، ويدخل فيه الأخبار اليومية والنظريات العلمية، حيث يؤدي فيها المرسل دور الصحفي أو الراوي، ويشترط فيه الصدق والموضوعية مكتفيا في ذلك بنقل المعلومة الخبر إلى المتلقي لتفهم وتعلم فقط.

أما ثانيهما فيتجاوز به صاحبه الفهم إلى غاية أبعد ألا وهي إقناع المتلقي بمحتوى خطابه، ومن ثمَّ صدقها الذي غالبا ما يترجم إلى سلوكات عملية بالفعل، أو الكف، والترك. إنهما يرفضان المبدأ القائل: إن اللسان يستخدم للتواصل بالمعنى الضيق للعبارة، أي لنقل المعلومة أو الخبر " إننا نريد أن نصل إلى القول إن الإخبارية

في الواقع تعد من درجة ثانية بالمقارنة مع الحجاجية، فالزعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إلا قِناعا لزعم أكثر جوهرية بممارسة ضغط على آراء الآخر"[7].

لقد بيّنا أن" اللغة حجاجية في ذاتها أي أنها لا تحمل فقط معلومات وتعبيرا، ولكنها تحتوي في نفسها، وبصرف النظر عن استعمالها في السياق على عناصر حجاجية بحتة "[8]. فالملفوظات إذن تتضمن قضية حجاجية ليست مضافة أو دخيلة، ولكنها كامنة في اللغة بوصفها عمادا لكل دلالة، وعليه فالحجاج لم يعد نشاطا لسانيا ثانويا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى عينه، وأساس تأويل الخطاب[7]؛ومعالعوامل التداولية الخارجية تشتد الظاهرة وتتقوى. " فالحجج لا تنبني في فراغ ولا تصاغ في مجال معزول، أو سياق منفصل عن شروط تكوُّنه وسيرورته"[9]. فاللغة تحمل بعدا حجاجيا في جميع مستوياتها، فهي عند أوزوالد ديكرو وسيلة للسجال بين الذوات البشرية، والحجاج جوهرها بصرف النظر عن استعمالاتها المختلفة[10].

وتجدر الإشارة إلى أهم مفهوم في نظرية ديكرو وزميله الحجاجية وهو التوجيه (L'orientation)؛ إذ حصرا فيه غاية الحجاج ووظيفته، فحينما نقول لشخص ما: إن هذا الفندق مريح وتتوفر فيه جميع وسائل الراحة، فنحن لا نريد إخباره بذلك بقدر ما ندعوه إلى زيارته، فنحن جهدنا أنفسنا في توجيهه إلى استنتاج أن إقامته بهذا الفندق سيكون لها الأثر الإيجابي عليه، ومن ثم فهي دعوة للإقامة بهذا الفندق، فالإخبارية إذن ثانوية بالنسبة للوظيفة الحجاجية[11].

وهذه التوجيهات الحجاجية (Orientations argumentatives) هي التي تسمح باتباع ملفوظ معين لملفوظ آخر، وتمنع متابعته بملفوظات أخرى، أي

أنها ترجح نتيجة معينة دون غيرها من النتائج، التي قد تكون مصرحا بها أو متضمنة في القول.

و جملة القول أن نظريتهما تقوم على ثلاثة أسس وهي:

1- الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

2- المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

2- عدم الفصل بين الدلاليات والتداوليات[12]؛ فما هو المنطق الذي ترتكز عليه نظرية الحجاج في اللغة؟

- ديكرو يقترح منطق اللغة الخاص بها:

منطق اللغة (La logique du langage)هو مصطلح اقترحه ديكرو في سياق رده على الباحثين عن المنطق في اللغة، سواء أكان هذا المنطق أرسطيا، أم تأليفيا، أم منطق المحمولات، أم غير ذلك[13]، فما المراد بالمنطق الطبيعي للغة؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال الجوهري في بحثنا يجب أن نعترف بحقيقة صعوبة تحديد هذا المصطلح بدقة لاتساع دائرته المفهومية؛ فهي تشمل كل أنواع المنطق التي لا تتنزل في المنطق الصوري والرياضي[14].

لاحظ ديكرو أن بين بعض الأقوال اللغوية المتوالية تتشكل " تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى...متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الاقوال فقط، ولكنها محددة أيضا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"[15].

إن منطق اللغة "يعني وجود طابع استدلالي في بنية اللغة الطبيعية، ووجود علاقات استنباطية بين مكوناتها دون اللجوء إلى اصطناع هذه المكونات أو صورنتها"[16]. وهذا ما أكده ديكرو حين قال :" توجد بين بعض ملفوظات اللغة الطبيعية علاقات حتمية، حيث إننا عندما نقبل هذه الملفوظات؛ نكون مجبرين على تقبل بعضها الآخر"[17].

ومن هنا لزمنا التفريق بين الاستدلال(Raisonement)، وبين الحجاج (Argumentation) لأنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين تماما هما: نظام المنطق، ونظام الخطاب[18]. فالاستدلال عملياته منطقية صرفة، مصدرها المنطق الأرسطي، و هو يقتضي أن تكون كل عناصره أحادية المعنى وغير قابلة للتعدد والاشتراك، بحيث تكون مكوناته مفهومة لدى الجميع بلا خلاف بينهم، وهو كذلك غير مرتبط بمقام معين، فهو استنباط لنتائج ضرورية من مقدمات يقينية، وذلك مجال بحث المناطقة الساعين إلى شكلنة الأنظمة بصرف النظر عن محتوياتها.

أما الحجاج فهو على العكس من ذلك كله، فمن خصائصه التعدد والاختلاف والخصوصية والمقامية، فالحقيقة فيه ليست مضمونة، ولا ضرورية، ولا أحادية، بل هي نسبية ذاتية لكن لا إلى غير حد؛ لأنها –عملية التحاج– تجري في مقام معين وتحت أنظار جمهور سواء أكان كونيا أم خاصا[19].

و يمكن أن نضرب لهما المثالين التاليين:

1) كل اللغويين علماء.

– زيد لغوي.

– إذن زيد عالم.

2) انخفض ميزان الحرارة.

– إذن سينزل المطر.

فالمثال الأول يتعلق ببرهنة أو قياس منطقي (Syllogisme)، ونتيجة أن زيد عالم حتمية ضرورية لأسباب منطقية، أما استنتاج نزول المطر في المثال الثاني فهو احتمالي، وهذا هو المجال الذي تبحث فيه نظرية الحجاج في اللغة.

خاتمة:

أولا:الحجاج في اللغة نظرية غربية دلالية حديثة انبثقت من داخل نظرية الأفعال اللغوية لكل من أوستين وسيرل، تقدم تصورا جديدا للمعني من حيث طبيعته ومجاله، وهي تندرج ضمن تيار حديث في اللسانيات، ظهرت على يد الألسني الفرنسي "ديكرو"، – بعد إضافته فعلين لغويين هما: الاقتضاء والحجاج–، في كتابه "الحجاج في اللغة" عام 1983م، مفادها أن اللغة تحمل في جوهرها بعدا حجاجيا، ومن ثَمَّ فهي لا ترى بأن الوظيفة الإبلاغية الإخبارية هي الوظيفة الأساس والوحيدة للغة، بل إن الوظيفة الحجاجية هي أهم وظائفها، وتلقفها عنه الباحثون العرب ومنهم أبو بكر العزَّاوي ، وعبد الله صولة، وسامية الدريدي وغيرهم.

ولكن يجب التنبيه على أن ديكرو ليس أول من دعا إلى هذا من اللسانيين الغربيين، فقد أشار إلى ذلك جورج لايكوف في مقال له تحت عنوان" اللسانيات والمنطق الطبيعي"، وقبل ذلك قيستاف قيّوم، وغريماس في اللسانيات النيوية، وبول لورنزن، وجان بلير غريز، وجون بياجي

ثانيا: الحجاج فعالية تداولية خطابية حوارية إقناعية، تعتمد الحجج اللغوية وسيلة لها – بدل الحجج البرهانية– لنتائج معينة، وهو ما يعرف بمنطق اللغة الطبيعية؛ فتغيير زاوية البحث، وتطوير الأدوات المنهجية والمعرفية في دراسة البلاغة، من شأنه الإسهام في التأسيس لثقافة الحوار، والنقد البناء، والانفتاح على الآخر

وقبوله، وفي هذه الحال يمكن القول بأن البلاغة قد استعادت مجدها ووظيفتها، وخلعت من عنقها غلَّ المغالطة والخداع الذي وضعه السفسطائيون، وصرامة المنطق الأرسطي.

ثالثا: نظرية الحجاج في اللغة القائمة على المنطق الطبيعي للغة بدل المنطق الصوري، هي نظرية بكر تحتاج إلى مزيد من البناء النظري والتطبيقي، ويمكن القول عنها إنها في مرحلة التجريب والاختبار؛ وهي جِسر الإغناء والإثراء، وفي العالم العربي هناك محاولات جادّة في تحليل النصوص والخطابات؛ ومنها الدينية لذلك ينبغي الحذر في التعامل معها.

الهوامش:

(1) هذا هو عنوانه الأصلي بالإنجليزية، وترجم إلى الفرنسية بـ:-Quand dire c'est faire- . أما في العربية فمنهم من ترجمه بـ :" نظرية أفعال الكلام "، ومنهم ترجمه بـ: " كيف ننجز أفعالا بالكلمات"، وبعضهم :" عندما نقول نفعل".

(2) Quand dire c' est faire (how to do things with words . J-L Austin) Tra , Gilles Lan , Seuil , 1970 .

(3) أوستن Austin، وسيرل Searl، وجرايس Grice، كان هؤلاء الثلاثة من أنصار مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية أو العادية، التي تهتم بطريقة إيصال معنى اللغة الطبيعية للإنسان.

(4) ينظر: أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمّو النقاري،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م، ص55.

(5) آليات الحجاج والتواصل في ضوء النظرية التداولية: رتيبة محمدة بولدواني، مجلة مقاربات، دورية محكمة تهتم بالبحث العلمي، العدد الثاني عشر، فاس، المغرب ،المجلد السادس 2013م. ص 22.

(6) الحجاج في الشعر العربي القديم: سامية الدريدي، ص 22 .

(7) تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية: صابر الحباشة، الدار المتوسطية للنشر ، تونس، الطبعة الأولى، 2007م، ص 197.

[8]كورنيليافون راد صكوحي: الحجاج في المقام المدرسي ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية في التعليم الأساسي، تحت إشراف: فريق البحث في البلاغة والحجاج برئاسة حمادى صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، 15 أفريل، 2001م، ص 32.

[9] ينظر: صابر الحباشة: تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاجية، ص197.

[10] عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص99.

[11] عبد اله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، الجزء الأول، ص 38.

[12]عمر بلخير:تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2003م، ص 123 .

[13] الحجاج في درس الفلسفة: مليكة غبار وآخرون، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د-ط، 2006م، ص53.

[14] أبو بكر العزاوي: حوار حول الحجاج، ص16.

[15] ينظر: الخطاب والحجاج: أبو بكر العزاوي،الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006م، ص17.

[16] أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، ص 57.

[17] عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 104.

[18] المرجع نفسه، ص 104-105.

[19] أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الأول، حدود وتعريفات، ص57.

[20] ينظر:عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2011م، ص14-15.